شرق وغرب، رجولة وأنوثة*
نحو مفهوم المواجهة الحضارية لدى صنع الله إبراهيم

عائـشة لكحـــل
جامعة باجي مختار – عنابــة (الجزائر)

الملخّص:

يحتكم الصراع بين الشرق والغرب لدى "صنع الله إبراهيم" إلى التفاعلات السلبية، التي يمكن استجلاؤها في إطار المواجهة الحضارية التي تنبني على رؤية مضادة للواقع الحضاري، وذلك كما قدّمته العلاقة بين الرجولة والأنوثة، من منظور حاولت فيه المرأة الغربية تجسير العلاقة مع الشرق، حيث كان حضورها مؤسّسا على تحديات حضارية/ ثقافية منحت هذه العلاقة بعدا انفصاليا يستند إلى ثقافة الاختلاف، واتسمت بمنحى تراتبي لصعود قيم وهبوط أخرى في ساحة الصراع، فهل نجحت الأنثى الغربية في مدّ جسر التواصل مع الشرق؟ وهل استطاعت أن تعبّر أنوثتها عن علاقتها الحضارية مع الأنموذج الذكوري الشرقي؟

الكلمات المفاتيح: شرق، غرب، صراع، حضارة، تفاعل، رجولة، أنوثة.

Résumé:

Le conflit entre l'orient et l'occident est régi chez "Sonaa Allah Ibrahim" aux interactions négatives élucidées dans le cadre de la confrontation civilisationnelle qui se construit sur une vision contradictoire du vécu- civilisationnelle, cela comme est présenté par la relation entre la virilité et la féminité d'une perspective à partir de laquelle, la femme occidentale a essayé d'établir une relation avec l'orient, ainsi, sa présence s'appuie sur les défis civilisationnels et culturels, cette relation à conféré une dimension séparatiste qui se fonde sur la culture de la différence, elle est caractérisée par une orientation hiérarchique de l'ascension de certaines valeurs et la chute d'autres dans le chanps du conflis.

La femme occidentale a-t-elle réussi à prolonger le pants de la communication avec l'orient? Est-ce que la féminité a pu s'exprimer à propos de sa relation civilisationnelle avec le modèle viril oriental?

Mots clés : Orient, Occident, Conflit, Civilisation, Interaction, Virilité, Féminité.

Abstract:

According to "Sonaa Allah Ibrahim", the conflict between orient and occident is ruled by negative interactions which can be clarified within the framework of civilizational

confrontation based upon an opposed vision to civilized reality, as presented by the relationship between masculinity and feminity, from a perspective where western women has tried to bridge the relationship with the orient, as her presence is based on civilizational/cultural challenges it has geven a separatist dimension based on culture of difference it is characterized by a hierarchical trend of rising and falling of values in the arena of conflict.

Has the western female succeeded in extending the bridge of communication with the orient. Was she able to express her feminity about its cultural relationship with the eastern masculine model?

Keywords : Orient, Occident, Conflict, Civilisation, Interaction, Masculinity, Feminity.

تمهيد

يتلخص مفهوم التجربة الأنثوية في نقطة التحوّل التي حصلت في مسار العلاقات بين الشرق والغرب، من خلال البحث عن أبعاد العلاقة بين (البطل/ المرأة) في ظل علاقة (حوار/ صراع) وهي علاقات عابرة تجلّت وفق تصريحات أو اعترافات توهم القارئ باللقاء، بينما يحمل الحوار المتوهم اِلتفاتة حضارية لحقيقة الصدام التي يجسّدها الاختلاف؛ فـــ« طبيعة الحياة هي الاختلاف (...) والاختلاف تنوع وتباين ولكنه أيضا، إمكانية تعايش... وبدون هذه الإمكانية يستحيل عليه(الوجود) (...) والاختلاف إذا ضرورة وجود، والتعايش ضرورة بقاء»[1]، إذ لم يحدّ اللقاء المادي (الجسدي) من الهوّة الفاصلة بين عوالم الشخصيات المختلفة حضاريا، وإن اتّخذت صورا متعددة فيبقى جوهرها واحدا، يبدأ (اللقاء) بالكشف عن هوية الآخر وتشخيصه، وينتهي غالبا بالفراق، وهي نتيجة حتمية تمليها طبيعة الوجود، لتبقى رؤية الكاتب رؤية مضادة تنطلق من المرجعية (الشيوعية /الحضارية)، فقد طبعت علاقة البطل بالمرأة الغربية ببعد حضاري يمكن استجلاؤه من خلال وقوفنا عند علاقته مع الشخصيات الغربية (بولين،

وشرلي، وسيلين)، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتساءل عن إمكانية اعتبار التفاعل –لدى "صنع الله"– مبدءا قارا في بناء عالم أحادي يجمع المختلفات في قالب حضاري واحد؟

1–الحضارة بين الحياة والموت

تجلى مفهوم "صنع الله" للحضارة في جملة من القضايا التي ارتبطت بكيفية تمظهرها جماليا، وذلك انطلاقا من موقعها في السرد، فقد قدّم الكاتب تمثّلات هذه القضايا من خلال التعالق الوظيفي للشخصيات، ولكن على نحو تبدو فيه هذه الشخصيات مصنّفة حسب بنيتها الاجتماعية والنفسية والحضارية إلى شخصيات مريضة، تأسست هذه الرؤية على مرجعية يتماثل فيها مرض الشخصيات الأنثوية ومرض الحضارة الغربية، وذلك وفقا لما تقدّمه النصوص الروائية من معطيات يمكن الوقوف عندها بالقراءة والتحليل.

تبدأ قصّة مرض الشخصيات مع "شرلي" في رواية "أمريكانلي"، وهي طالبة أمريكية اكتسبت من خلال موقعها في السرد عدّة وظائف، منها ما يتعلق بالمواقف الخاصة ورؤيتها التاريخية والحضارية التي تضمَّنَها تدخُّلها بين الحين والآخر، ومنها ما يتعلق ببنائها النفسي والاجتماعي، فهي عبارة عن أنموذج ثقافي وحضاري أساس في البنية السوسيوثقافية الغربية، ولذلك احتلّت موقعا هاما في اللعبة الحضارية وأسهمت في منح النص بعدا تأويليا يتناسق دلاليا مع ما قدّمته، انطلاقا من ربط مرضها بوصفه مفهوما فيزيولوجيا بمرض الحضارة التي تنتمي إليها بوصفه مرضا شموليا كونيا، وذلك بما يكشف عنه حوارها مع "**شكري**": « ضحكت وقالت: لأني أنا أيضا آخذ "بروزاك" السنة الماضية وجدت نفسي أتصرف تصرفات غريبة أتشاجر مع أهلي وأبكي، وأتأرجح بين أقصى حالات الفرح واليأس. أخذتني أمي إلى

طبيبة نفسية. ترددت عليها أربع مرات ولم تكن تتحدث كثيرا فقط جملة أو اثنتين. وجهت إلي أسئلة شاملة عن حياتي الجنسية وقالت لي إني معقدة بسبب صورتي عن نفسي. ألفيتني أقول أشياء وأرى أمورا لم تكن تخطر ببالي وكنت أعود من اللقاء مدمرة وفي النهاية أعطتني بروزاك»[2].

ينضوي المقطع على جملة من المعطيات النصية ذات بعد حضاري تعدّ أنموذجا للحضارة المريضة؛ إذ يمثل التشاجر والانحلال الاجتماعي والتمزق الناجم عن الآفات سماتٍ تميّز الحياة الغربية في "أمريكا"، إضافة إلى التعقيد والتناقض، من حيث تكوينها الاجتماعي، ثم هيمنة الجانب المادي، فالمرض يعني خلخلة في البنية الاجتماعية، إضافة إلى الأضرار النفسية التي تركها الاستعمار في البلدان الشرقية (الجزائر مثلا) كما أشار إلى ذلك "فرانتز فانون" *Frantz Fanan*[3] الذي يرى أن الاستعمار رمز للانفصام في الشخصية بين الإنسان وتملّك الإنسان، هذا إلى جانب الحصار النفسي الذي تسبب فيه الجانب الاقتصادي الرأسمالي.

كانت الرحلة إلى الغرب موسومة بالعلل ومحكومة بالاضطراب، إذ لم ينف "سلامة موسى" –على الرغم من انتصاره للحضارة الغربية– بعد هذه الأخيرة عن المرض، فـــ« حضارة أوروبا هي حضارة القلق والتوتر وأمراض النفس التي لا تحصى، ولكنها أيضا حضارة الاستطلاع والاستقلال والديمقراطية والعلم والاختراع، أي حضارة المصانع وليست حضارة المزارع»[4].

ولئن كانت أمراض الغرب سمة قارة في حضارتهم، فهذا يعني تموضعها ضمن استراتيجية التراجع التي تمثّل الصيغة الأولية لغياب الجانب الروحي للحضارة الغربية، وهي حضارة الآلة والحديد التي ظلّت ترقّع ثوب تقدّمها الصناعي، متجاهلة صدأ آلاتها وتآكلها، إذ يرى "روجيه غارودي": أنّ

الغالبية من هذا المجتمع قد مات الله عندها، لأن الإنسان فيه قد بتر عن بعده الرباني، وهو البحث عن معنى الحياة[5] التي استبدلت فيه المادة بالإنسان، فاستأصلت أصله واستلبت إنسانيته المتماهية بين الجهل بماهية الوجود وفقدان معنى الحياة، ويكون العقم بذلك النتيجة الحتمية لهذا الوضع الوجودي، وينتفي عن الإنسان طابع التجدد، وتكتسي الحضارة ثوب العاهة الجسدية ، هذا ما يحيل إليه عقم "**بولين**" خليلة "تلميذ الجبرتي" في رواية "العمامة والقبعة": «...قالت في أسى: يبدو أني لا أحمل...»[6].

يمثّل اللقاء بين "تلميذ الجبرتي" و"بولين" رمزا للقاء الحضاري بين الشرق والغرب في قصة جديدة يحيكها الكاتب انطلاقا من بناء التجربة الأنثوية بين الرجولة والأنوثة والصراع الأزلي بينهما، فالعلاقة بين الشرق والغرب لدى "صنع الله إبراهيم" هي علاقة عقيمة انتهت بالانفصال المشروط بالتباين الثقافي بين العالمين، والصراع في العالم الجديد لدى–هنتنجتون–لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون ثقافيا وهو المصدر الغالب للصراع [7].

مثّلت الحملة الفرنسية مؤشّرا دلاليا لإحداثيات التفاعل الذي اتّسم بتشظٍ على مستوى الوعي بالتباين والتباعد، كما ارتبط اللقاء الأول بسؤال أبدي عن جدوى التداخل الثقافي الذي لم يستطع إلا الانتصار إلى أيديولوجيا الاختلاف، فكيف إذا تعلّق الأمر بمستوى آخر من التفاعل المتمثّل في الاستعمار.

كان حضور شخصية "بولين" منوطا برؤية للعالم قوامها نظرة تاريخية لقضية الصراع، وهي رؤية تضطلع بدور وظيفي في رسم الحدود والفواصل بين العالمين، ثم الكشف عن عقم الحضارة الغربية في التواصل مع الآخر على الرغم من تبنّيها شعار الحرية والعدالة والمساواة، وعجزها عن قبوله على الرغم من حرصها على تملّكه.

أما "سيلين" الشخصية الفرنسية التي تعرّف إليها "شكري" في "القانون الفرنسي" في "فرنسا" فقد راحت هي الأخرى تحيك قصة حضارتها، بدءا بتماهيها في بناء علاقة وهمية مع الراوي، ثم تمضي لتكشف في نهاية المطاف عن مرضها العضوي: « جرعت الكأس الجديد على مرتين ثم وضعته على المائدة ثم قالت لي:

–أنا مصابة بالسرطان

ابتلعت المفاجأة وقلت في هدوء: وماذا في ذلك؟ إنه شيء عادي هذه الأيام»[8] .

يمثّل المرض عنصرا قارا في عملية المساءلة التاريخية، وحضوره بوصفه شرطا في العلاقة يعني ضمور الجانب التواصلي بين الشخصيات، باعتبار أن المرض تشخيص لوضع قائم وتنبؤ بالوضع الممكن، ينضوي الوضع القائم على مقياس الحضارة، بأنها حضارة سقيمة عاجزة عن أداء وظيفتها في الحياة وعن حماية أفرادها، إضافة إلى نفيها لضرورة وجود بنية شمولية تجمع البنيات المترابطة لإحداث الاتساق الوظيفي بينها، فالسرطان هو تزايد غير طبيعي للخلايا التي تتسبب في نمو الأورام الخبيثة في عضو محدد من الجسم، ثم انتقالها إلى الخلايا السليمة، وسرطان الحضارة الغربية تزايد عشوائي للسلع والمنتجات الصناعية وسيطرتها على المجالات الاجتماعية والدينية والثقافية، لتتحول الحياة (الجسم) إلى مجرّد سوق تباع فيه القيم وتشترى بهدف إنعاش الاقتصاد وسيطرة الرأسمالية على العالم.

إن المتمعن لهذا التراكم المعرفي للعلاقات بين الحدود التشخيصية للسرطان وتمثّلها للمرض لَيوقنُ ذلك التماثل الصوري بين المرضين (العضوي والحضاري)، « فأوربا التي كان عليها أن تهدي سعي الإنسانية، قد اتخذت من مشاعل الحضارة (فتيلا) يحرق بدل أن يضيء، وفي ضوء ما أشعلت

من نار أشاعت وهجها في المستعمرات حتى جارت على أرضها هي، أوربا هذه رأينا الفوضى تنتشر فيها، الفوضى نفسها التي أشاعتها في بقية أجزاء الأرض، والضلال نفسه، بل إنها تجرعت الكأس المحتومة نفسها، كأس الاستسلام لقوى الشر الأسطورية»[9].

هذه الكأس التي احتوت رؤوس الأموال التي استمدها الغرب من المستعمرات الشرقية، إضافة إلى المنتجات الصناعية، كل ذلك ما لبث أن تحوّل إلى سرطان ينخر جسد الحضارة الغربية ويفكك بنيتها الاجتماعية، وتنتقل العدوى حتما إلى الشرق، وإن اختلفت صور المرض فالنتيجة واحدة: الموت/الانتحار، فقد رفضت "سيلين" استئصال الورم، وكانت ترى فيه الوجه الجميل لجسدها، كما يرى الغرب في المادية والمواد المسرطنة والديمقراطية الركيزة الأساسة لحضارتهم؛ تقول "سيلين": «...لكني أكره البتر والتشويه للجسد»[10]. فاستئصال (الورم) أو الجانب المادي المهيمن على الحضارة الغربية هو تشويه لها وإيذان بانتحارها.

وهو ما يتناسب طردا مع ما قدّمه "هنتجنتون" بقوله: « ...فإن الفيروس الغربي بمجرد أن يسكن مجتمعا آخر، يصبح من الصعب استئصاله، الفيروس يبقى، ولكنه غير قاتل، يظل المريض على قيد الحياة، ولكنه يبقى مريضا، القادة السياسيون يمكن أن يصنعوا التاريخ ولكنهم لا يستطيعون الهروب منه، إنهم يصنعون دولا متفرقة ولا يصنعون مجتمعات غربية، ويصيبون بلادهم بعدوى الشيزوفرانيا الثقافية التي تظل ملازمة لها على الدوام»[11]. هذا عن الدول غير الغربية، فما بالك الدول التي قامت بخلق هذا الفيروس، ولذلك رفضت "سيلين" العلاج على الرغم من معاناتها من حملها للورم، حيث يفضّل الغرب فيروساته المادية التي تنخر حضارته وتهدد كيانه وتراهن على وجوده.

حاول "صنع الله" أن يمنح المرأة إطارا دلاليا، من حيث كونها همزة وصل بين ثقافتين متمايزتين، وسعت إلى طبع هذه العلاقة بطابع خاص، ولكن حضورها على مسرح الأحداث كان مؤسسا على موضوعة المرض، فكانت بذلك علامة استفهام في الحضارة الغربية، فقد خضعت "سيلين" للعلاج النفسي: « ...قالت إنها خضعت للعلاج النفسي طوال ثلاث سنوات. لكنها استفادت من التجربة رغم ما تمثله من ضربة سيكولوجية للمرأة»[12]. وهي محاولة منح المرأة/الغرب إطارا حضاريا لكونها تحمل طابعا كونيا وشموليا للوجود وللحضارة، وفي هذا الصدد تكمن الفوارق الحادة بين الحضارات في مدى تفاعلها مع الحضارات الأخرى .

ولئن كانت الحضارة الغربية حضارة موبوءة روحيا وماديا طبقا لما قدمته الصور الدلالية لوظيفة الشخصية الأنثوية في الروايات: "شرلي وبولين وسيلين"، فإن الحضارة الشرقية لم تكن بمنأى عن الوباء، وذلك من خلال تواتر الإشارات إلى مرض "شكري" ومعاناته من هبوط الدورة الدموية وارتفاع الضغط واضطراب الجهاز الهضمي، يقول في ذلك: « ...ظهر أستاذ الفيزياء بعد أسبوع وأصرّ أن يصحبني إلى طبيب نفسي»[13]. غير أن الجدير للتمعن هو نقاط الاختلاف بين المرضين، إذ لم يرفض الراوي الخضوع إلى العلاج، إضافة إلى أن مرضه مزمن وغير قاتل، وما يلاحظ في هذه النقطة أن الحضارة الغربية على يقينها بمرضها لم تحاول القضاء على أسباب الأورام الخبيثة، في حين سعى الراوي إلى التخلص من ربقة التخلف التي لازمته طيلة زمن، وحيث كانت المادية الثمن الذي يدفعه الغربي لبناء عالم تكنولوجي أحادي، كانت الانهزامية الدافع الذي أدى بالشرقي إلى ترقّب الحضارة الغربية في انتظار ما تقدّمه من إنجازات.

وهي مرحلة مهمة من مراحل تكوين المجتمع الشرقي، حيث التخلف والعقد النفسية ومركب النقص والانبهار واضطراب الأنا في التعبير عن ذاته، وتهاونه في نزع قناع الآخر وتردّده في القضاء على تراتبية الوجود الأحادي، والضمور في مغادرة الحصن الذي بناه الغرب، « هذه هي السياسة التي فتكت في حضارتنا، هي فن الدعاية كوسيلة للوصول. إذن هي شيء من الانهزامية والمكيافللية، هي عمل حياكة نسيج الأقوال ووضع ألوان زاهية تبهر الأنظار(...) هي هذه الدعاية التي تمازحك وتضحكك وتسليك، حتى إذا وقعتَ في أحابيلها تبكيك »[14]، فالحضارة الشرقية حضارة بائسة تحكمها الأهواء والعواطف والمصالح الفردية، هي حضارة مراهقة.

لم تنفِ الإشارات المتكررة إلى سلبيات الحضارة الشرقية وجود إمكانية إعادة بناء الذات وفق إحداثيات حضارية جديدة، ووجود أمل لكسر الحواجز ومحاولة بعث شرارة الحداثة للمضي قُدُما إلى الأمام، فقد عبّر الراوي "شكري" عن مرحلة جديدة من الحياة من خلال بعض الحلول التي قدّمها الطبيب المعالج الذي يحيل –في أكثر تجلّياته– إلى المفكر أو المثقف أو صانع الحضارة:

« سألتني "فادية" في شيء من التحدي: لكنك لم تقل لنا كيف يمكن للمصريين أن يتخلصوا من هذا الاكتئاب الجمعي أم هو قدر لا فكاك منه؟

–أعتقد أنه يمكن التخلص منه كما فعلت أنا أو كما أحاول أن أفعل. فلا أزعم أني قد شفيت تماما. الأمر يحتاج إلى بعض الوقت.

–تقصد بالمشي؟

–انتشرت الابتسامات على الوجوه

–قلت: أجل

–سبعون مليونا يمشون؟

–قلت: ليس بالضرورة. الفكرة هي تنشيط الدورة الدموية»[15] .

ينبني النص على جملة من المعطيات المتجانسة دلاليا مع الحقيقة، فقد تعمّد الكاتب الإشارة إلى قضية الحضارة من منظور مختلف، يبدأ من تحديد الإطار العام وهو التخلف الذي يوحي إليه مصطلح الاكتئاب الجمعي، فكيف للشرق أن يتخلص من تبعيته وانكساره ويتجاوز واقعه المأساوي؟ وقد كان ذلك منوطا بالحل الذي اقترحه الطبيب للسير في ركب التطور الحضاري والتغيير الاجتماعي وتحقيق العدالة الاجتماعية، واستحداث طرق تفكير حديثة تجنح إلى التحليل والشك والتأويل والتحقيق التاريخي، للبحث عن البديل المنطقي (النظام)، والترياق للشفاء من الاكتئاب الجمعي بتنشيط العقل (الدورة الدموية) وتفعيل دور الفكر في بناء صرح المجد، « ومن الواضح أن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع ما، هو اتجاه أفكاره: فإما أن تكون متجهة إلى الأمام، إلى المستقبل، أو إلى الخلف، اتجاها متقهقرا، اتجاها ملتفتا إلى الماضي بصورة مرضية »[16].

إن ما يميّز أعمال "صنع الله" هو الإطار المعرفي الدقيق، والتحديد التوبوغرافي للحدود التاريخية والجغرافية، ذلك أنه ألصق الاكتئاب الجمعي بالمصريين، ربما يعود ذلك إلى اعتبارهم رمز العروبة ومركز الأمة العربية، ولهذا كان حضور الراوي في النصوص الروائية مبنيا على موقعه السردي بوصفه أنموذجا حضاريا، ووظيفته في تقصي حدود المرض الحضاري وتحديد الترياق، فلا يزال شعاع الأمل لدى الراوي قائما لنهوض الأمم الشرقية/ العربية، وبالمقابل لم يرَ في مرض الحضارة الغربية أملا في العلاج، ما دام الغرب نفسه يرفض استئصال الورم المادي، لتبقى العلاقة بين الشرق والغرب علاقة صراع أبدي يمليه الإطار التفاعلي بين الرجولة والأنوثة.

2-شرق وغرب، رجولة وأنوثة:

يجري التماثل الوظيفي للشخصيات الرئيسة (البطل/ المرأة الغربية) وفق معيار المجانسة بين المفاهيم والصور، فقد ارتبط مفهوم الحضارة بالمرأة في روايات المواجهة الحضارية، وجاء تمثّل هذه العلاقة في الأعمال النقدية بوصفها جوهرا متعاليا على سلطة النص، وهي علاقة أزلية تعود إلى العصور الغابرة، فقد أخضع "غالي شكري" العلاقة بين الرجل والمرأة إلى الصراع، وعزا ذلك إلى التطور التاريخي ثم خضوع تلك العلاقة إلى مأساة العصر الميكانيكي، منطلقا من قصص النبلاء في بلاط القصور، عارضا في أسلوب إقناعي ما قدّمه "فرويد *Freud* " في محاولة التعرف على مأساة الإنسان إزاء طبيعة العلاقات التي تنشأ بينهما[17].

وقد جرى توظيف هذه المواجهة في الأعمال الروائية طبقا للتغيرات التي طرأت على العالم، انطلاقا من الأنظمة الاقتصادية العالمية ودخول الغرب إلى الحلبة بوصفه مستعمرا، وهيمنة الحضارة الغربية على العالم، ناهيك عن تراجع صورة الشرق التي أخذت تنميطا آخر (الإرهاب، التخلف) لدى الآخر، وعليه فإن « الغرب الروائي عند الأدباء العرب هو ردّ فعل الشرق الروائي عند الأدباء الغربيين، فالشرق امرأة عند الغربيين، لذلك لا بد أن يكون الغرب امرأة عند الأدباء العرب، وهنا يدخل الاستيهام والمتخيل والمكبوت والرغبة والحلم عند الروائيين الغربيين والعرب على حد سواء»[18]. كما اختار "صنع الله" أنموذجه الحضاري الشرقي رجلا؛ "تلميذ الجبرتي" و"شكري"، وآثر أن تكون البطلة المضادة الغربية امرأة "بولين وشرلي وسيلين".

صنع "صنع الله إبراهيم" لنفسه عالما روائيا حضاريا، واستلهم من تاريخ العلاقات التفاعلية صورا جديدة لفعل الحياة، فعالم الكاتب عالم تزاوجت فيه

الثقافات وتجاورت الأجناس المختلفة، ولكن على نحوٍ يبدو فيه شيء من الاختلاف، من حيث الظروف التي جمعت "تلميذ الجبرتي" بـــ"بولين"، وهو زمن الحملة، أما "شكري" فقد كان أستاذا زائرا في "أمريكانلي"، ومشاركا في المؤتمر المنعقد في "فرنسا" في "القانون الفرنسي"، جمعته بالمرأة الغربية علاقات عابرة، وعليه كان الاتصال مؤقتا يحكمه الزمن وإن اتخذ بعدا مستمرا تاريخيا.

لعبت الشخصيات الأنثوية دورا مهما في التعبير عن خصوصيتها من حيث كونها معادلا موضوعيا لمفهوم الحضارة، وذلك كما حدده "جورج طرابيشي" في نقده لأعمال "توفيق الحكيم" الذي عمد إلى« إقامة علاقة مساواة ومماهاة ثانية بين سوزي ديبون وأوروبا أو بين سوزي ديبون والغرب، فأوروبا مثلها مثل سوزي ديبون "شقراء، جميلة، رشيقة، ذكية، لكنها خفيفة، أنانية، لا يعنيها إلا نفسها واستعباد غيرها"»[19]. وهو تمثّل واضح للآخر وتشخيص دقيق لإحداثيات التفاعل الذي يتحدّد طبقا لمواصفات كل طرف من المعادلة.

تبدأ الحضارة رحلتها نحو اللقاء والانفصال من خلال جملة من المعايير التي وضعها "صنع الله" في رواياته: الثقافة، الاستعمار، التكنولوجيا، التاريخ، وذلك في إطار ثنائية المادة/الروح، بوصفها جوهر القضية، ولذلك فقد كان اللقاء محكوما بالتحول المضاد للنهايات، على الرغم مما تحيل إليه البداية بالتجاذب بين الطرفين، وهو ما يؤكده الراوي: « قلت لسيلين، أنا سعيد لأنني التقيت بك، قالت بحماس، وأنا أيضا»[20]. يتماهى الكاتب في إعطاء تفاصيل الصورة التفاعلية بعدا تواصليا يبدأ من توافق البطل والأنثى الغربية، فإلى أي مدى يمكن استيعاب حدود العلاقة بينهما؟

لم يكن الغرب هاجس الراوي، وإنما الثورة على الواقع الذي يعزو فيه قضاياه الجوهرية إلى الغرب، وتمنح حرية الفرد ليد الآخر، فغدا

الغرب/"الولايات المتحدة الأمريكية" كما دعاه "جون ستاينبك" "الوحش المفزع" لأنه كبير جدا بحيث يتعذر عليه فهمه [21]. وما يثير الانتباه هنا ذلك التماثل الدلالي بين وصف "شرلي" من قبل "ماهر" صديق الراوي بأنها وحش يأكل الرجال أكلا: « ...–ما هي أخبار "شرلي"؟

قلت مندهشا. ما لها؟

قال وهو يدير الموتور: لا شيء أريد فقط أن أحذرك، فهي تأكل الرجال أكلا»[22].

جاء تشبيه المرأة الأمريكية بالوحش، وهو رمز للحضارة الغربية التي اكتسبت هذه السمات من خلال جملة من المعطيات النصية، إذ يستقطب الغرب الشرقيين إلى جنته المتوهمة وفقا لما تمنحه من المنجزات والتقنيات الحديثة، بينما تخفي في حقيقتها صورة حقيقية لشبح الموت الذي يلاحق الفرد أينما ذهب، وهنا تكمن المفارقة بين ما تمنحه الأنثى الغربية من سمات « المرأة الديونسيوسية والغريزية، والفريسة السهلة للجهل واللاشعور والحلم(...) فالمرأة في نظر الرجل، تبقى لغزا دائما، وهو يجهل ما تبغي (...) فهي تود لو يكون الرجل بطلا، غير أنها تحاول المستحيل كما تأسره في البيت، وإذا ما رضخ لإرادتها احتقرته وازدرته، إنها من منظوره تجسيد حي وأبدي للتناقض»[23]. وهو وصف ينطبق على الغرب باعتبار العلاقة التاريخية التي تجمعها بالشرق، هذا ما تؤكده كذلك العلاقة بين "ربيع" وزوجته الفرنسية: « قال: زوجتي صاغت نفسها في دور الأم. لكنها امرأة صعبة. فرنسية عجفاء؟ التقطته عندما جاء من عشرين سنة ولأنه لم يكن يعرف غيرها أو لأنها أول تجربة له مع المرأة الأوروبية تزوجها وأحال كل منهما حياة الآخر جحيما»[24].

لم يكن التصوير الدقيق لحيثيات التفاعل الحضاري بين العوالم إلاّ حدثا طارئا أوجبه رفض كل من الطرفين الآخر، هذا مقابل الرجل (الشرق) الذي يتجلى في النص بوصفه أبولونيا وعقلانيا[25]. وعليه تتراءى للقارئ إحداثيات الدلالة التي تقوم على أساس التناقض الحضاري بين (الشرق/الغرب)، وعلى أساس التماثل الوظيفي بين الرجولة والأنوثة، "شكري/شرلي"، ثم القيم التي تعزي إلى الغرب/الأنثى الطابع الغرائزي والمادي والفردي، فإلى أي مدى يمكن استكناه أواصر تلك العلاقة بين العالمين؟ وهل تمكّن "صنع الله إبراهيم" أن يتمثل طبيعة تلك العلاقة تمثلا حقيقيا؟

يمكن استجلاء المفاهيم التي سبق تقديمها من خلال تتبع مراحل التراكم الزمني، والوقوف على الكذبة التاريخية المتمثلة في موضوع الاستعمار بوصفه أساس التحول التاريخي والحضاري، فقد تبنى الاستعمار سياسة هدم الشعوب والنهوض على جثثها، وامتصاص دمائها لسقي بذور الحضارة الغربية، وكانت الحضارة في نظر "شرلي" آلة تتحرك بدماء أمم وقبائل إنسانية دفعت حياتها قربانا لحركة الاستعمار الغربي: « قالت "شرلي" الأوروبيون جلبوا معهم أمراضا جديدة دون قصد. ما حدث للهنود الحمر يعد مأساة. لكن يجب اعتبارها من قبيل الأضرار الهامشية التي تواكب انتشار الحضارة»[26]. فقد قضت الحضارة المادية على أي جدوى للقيم الإنسانية في حضور الآلة التي صارت تنافس الإنسان على المرتبة الأولى.

يضيف "شكري" محاورته للحقيقة الواقعية متمثلا حيثياتها من خلال الأنثى الغربية ذاتها: « ...ثم أضافت ساخرة: نحن أمة من القتلة والقناصة»[27]، فالحضارة مرادفة للموت، وصار الملفوظان التاليان: "القتلة والقناصة" مصطلحات أساسة ترافق الغرب في كل مجالات الحياة، وصار الغربي

يساوم ثمن بقائه وسط القيم المريضة ويقنع بثمن بخس لقاء إنسانيته في السوق الرأسمالية.

كما استطاعت "بولين" أن تمدّ جسر التواصل الوهمي بعالم الشرق إثر علاقتها بـــ"تلميذ الجبرتي"، فهي شخصية تضطلع بإقامة فواصل حادة بينها وبين ما تسعى إلى تملّكه، فالحضارة في مفهوم "بولين" (مادة) يجب الحفاظ عليها، أرادت هذه الشخصية أن تخلق مفهوما يضاهي مفهوم "شرلي" من خلال سؤالها الموجه دلاليا: «...وسألتني بعد انصراف فنتور: هل أنت مملوك أو تركي أو فلاح؟

عجبت للسؤال الذي لم يخطر على بالي من قبل. فكرت لحظة ثم قلت: مصري.

قالت: سألقبك إذن بالمصري»[28].

تقصّدت "بولين" تجاهل هوية الراوي موضحة بذلك رؤيتها إلى المصري على أنه لا هوية له، فهو إما تركي أو فلاح أو مملوك، ولا حق له في أرض "مصر" الفرنسية، كما كانت إجابة الراوي بالمصري انحرافا للمسار الدلالي، منح الكلمة حمولة دلالية تقضي بالوجود والكيان الذي لا يزعزعه تعدد الأعراق في "مصر"، تنحصر رؤية "بولين" في ذاتها، ولعل تمركزها هو ما حال دون تفكيرها في غيرها، فقد انفصلت عن زوجها (الجندي البسيط) طمعا في الجاه الذي وجدته لدى "نابليون"، كما أن علاقتها بالراوي لم تتجاوز الحدود المادية التي جمعته به، ولذلك رفضت الزواج به: « ...وقالت: ماذا تنتظر أن يحدث لنا؟

قلت: نتزوج

انفجرت ضاحكة: نابليون عرض علي الزواج وقال إنه ينوي الطلاق من زوجته جوزفين»[29].

يعد هذا المقطع تمثلا منطقيا لعلاقة مادية مضطربة بين عالمين متمايزين، وهو ما يؤكده ذلك الصراع بين الروح والمادة، الأول في إطار ما تمليه حياة الشرق من تفاعلات اجتماعية، والثاني في إطار ما تقدمه المصالح الشخصية والنزعة الفردية الزائلة، هذا ما يفسره اختيار كل من البطل و"بولين" هديته للآخر وفق رؤيته الخاصة للحضارة: « قدمت إليها الشال الحريري فشكرتني ووضعته حول عنقها، وأعطتني قطعة حلوى فرنسية عبارة عن حبة كرز مغلفة بالشوكولاطة»[30] .

كان اختيار كل من الراوي و"بولين" ناجما عن رؤية كل منهما إلى الآخر، فبينما توجه الراوي إلى (الشّال) ذي الطراز التقليدي المليء بالقيم الإنسانية والروحية للصداقة والحب التي لا تبلى مع مرور الزمن وتغيّر الظروف، فضّلت "بولين" (قطعة الحلوى) تعبيرا عن النزعة المادية التي تمثّل مظهرا بارزا أفرزته الصناعة الغربية التي تعمد إلى تزييف كل شيء في الوجود، فمن تغليف حبة الكرز الطبيعية بالشوكولاطة إلى تزييف العلاقات وطبعها بالهشاشة والزوال حيث تنتهي مع انتهاء قطعة الحلوى، وزوال الروابط الاجتماعية والروحية المبنية على حجاب التكنولوجيا وبهاء التطور الصناعي، وتبقى القيم الإنسانية رهينة المادة المصنّعة المهددة بالزوال، فحضارة الراوي الشرقية حضارة روحية مستمرة لا تبلى مع انتهاء عهد المادة، في حين كانت حضارة "بولين" مادية تخضع إلى مقومات الغريزة الزائلة.

أعطى ذلك التواتر القيمي للمعطيات النفسية والاجتماعية والثقافية كل طرف خصوصية حضارية، عبّر عنها "توفيق الحكيم" بالعلاقة التماثلية بين بطلة الرواية الفتاة الشقراء وبين أوروبا، لتعطي كلا من الأنوثة والرجولة معنى

جديدا، وإلى حد ما مفاجئا: فالأنوثة مادة كما تحيل إليه "بولين"، والرجولة روح وواقعية[31].

لم يخرج وصف العلاقة بين الشرق والغرب عن سرد مظاهر التفاعل بين "شكري" و"بولين"، فقد أعطى كل منهما الحدث بعدا تصويريا، فقد عمد "صنع الله" إلى استكناه حقيقة الوجود من خلال إجراء تجربة المواجهة الحضارية بين شخصياته، وأيا كانت الصور فالنتيجة واحدة، وذلك ما يحيل إليه تمثل آخر لجوهر العلاقة: « ... سجلت اللحن على الورقة وقالت: أنا لا أطيق موسيقاكم إنها مجرد أنغام غليظة ورفيعة ذات ضوضاء منفرة»[32]. يعد ترفّع "بولين" على العادات والتقاليد المصرية تعاليا على خصوصية "مصر" الحضارية التي تمثّل الموسيقى إحدى أهم روافدها، ونفيا لهوية الآخر واختراقا لكينونته، فالموسيقى مجردّ صورة حضارية وتعبير عن الوجود والكيان ومن ثم عن الخصوصية والهوية، ورفضُها يعني رفض الحضارة التي تحويها، ورفض الآخر الذي يتمثلها، والحضارة لا تقاس بمظهرها الخارجي، وإنما بتأثيراتها وبمدى استيعابها من قبل الآخر.

تجلّت نظرة "سيلين" للحضارة وفق تحديدات ثقافية وتاريخية واقتصادية ترنو إلى الاحتكام إلى مبدأ الصراع بوصفه ضرورة تحتمها طبيعة العلاقات الدولية، هذا مقابل "شكري" الذي كان أكثر تفاؤلا لإحلال السلام العالمي: « سألتني ماريان: هل تظن أن هناك مستقبلا للقومية العربية؟

قلت: طبعا فلغة الشعوب العربية ومصالحها واحدة. المشكلة في تفاوت درجات التطور الاقتصادي. القاعدة الصناعية مثلا هي التي ستؤدي إلى نجاح الاتحاد الأوروبي.

اعترضت سيلين: لا أعتقد فالحروب هي الأكثر توقعا بين بلدان الاتحاد الأوروبي السياسات والمصالح متعارضة بين 15 دولة مستقلة. السياسة الزراعية مثلا. وهناك دول جديدة من أوروبا ستنضم بعد سنتين.
كما أن إسرائيل تطالب بالانضمام المصالح تتضارب »[33] .

يحتكم موقف "سيلين" من الواقع إلى ما قدّمه كل من "فوكوياما *Fukuyama* وهنتنجتون" من أن الصراع بين القوميات والأمم التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة سيكون مستقبل العالم الجديد، إذ تنفي "سيلين" عن العالم استقراره نتيجة لتضارب المصالح ونزوع الإنسان إلى الحرب، إذ « تفيد التجربة بأنه متى لم يتمكن الناس من الجهاد في سبيل قضية عادلة بسبب انتصار تلك القضية العادلة في جيل سابق، فإنهم سيجاهدون ضد القضية العادلة سيصارعون من أجل الصراع، أي أنهم سيصارعون لشعورهم بالملل حيث إنهم لا يتخيلون الحياة في العالم دون صراع»[34]. وعليه يمثّل الصراع سمة التفاعل بين دول الاتحاد الأوروبي، وهي نظرة شمولية تضطلع بتقديم مسهب لحقيقة الموجودات من وجهة نظر الآخر لنفسه وللعالم، في حين كان الشرق يتطلع إلى غد أفضل دون شرور، فالقومية العربية مشروع يهدد مصالح الغرب، ونجاحها يعني تنازل الغرب عن مستعمراته.

ترتكز هذه الرؤية إلى منهج "هوبز *Hobbes*" الذي يرى أن الإنسان هو ذئب لأخيه الإنسان [35]، وعليه فالصراع هو الطريق المثلى للبقاء، واضعا بذلك سمة التشابه بين الإنسان وحياة الغاب، وهو مفهوم يقوم على أساس مادي بحت، تقول "سيلين": « ... ما هذا الكلام الفارغ الذي قلته عن الاتحاد الأوروبي والوحدة العربية. ثم تعصبت ونرفزت وقمت واقفا
تطلعت إليها مذهولا. وشعرت بأن وجهها قد اتخذ أبعادا أكبر.
قلت: لم أفهم.

قالت: أنت تفهم جيدا. وواصلت ثورتها وتبينت قولها فجأة: أنا أكره أبناء المهاجرين ولا أريد العمل معهم»[36].

ولئن كان تعصب "سيلين" من قضية السلام العالمي ورفضها للآخر وتنكرها لوجوده موقفا نهائيا لفكرة التفاعل، فقد ارتبط ذلك بقلق حضاري وتمزق ثقافي يؤكده انفصالها المفاجئ عن "شكري"، بل وإسقاط القناع الحضاري الذي كان يخفي الوجه الحقيقي للغرب، والكشف عن مواطن التزييف الذي يميّز هذه العلاقة، وذلك كما يعبّر عنه موقف "سيلين" من الآخر: « ترددت لحظة وهي تتأملني ثم قالت: سنلتقي في عالم آخر أو لا نلتقي»[37]، يجري تقديم المادة الأيديولوجية للقارئ على نحو يتناسق فيه الخطاب والخطاب المضاد، ويتحوّل فيه اللقاء من مجرد اتصال تفرضه طبيعة الوجود إلى خطاب يضطلع بالتعبير عن خصوصية هذا الاتصال الذي لم يلبث أن تحوّل إلى خطاب مضاد ينفي عن الحوار مصداقيته ويحصره في دائرة الصراع.

ارتبط تجلي الأنثى في روايات "صنع الله" بدورها في الكشف عن رؤيتها للعالم وموقفها من الآخر، كما كان حضورها مؤسسا على أيديولوجيا الاختلاف التي هيمنت على النصوص، « ذلك أن للمرأة دلالةً رمزيةً مليئةً بالدلالات التاريخية والفنية والحضارية(...) فالموقف من المرأة موقف من الحياة، وهي في الرواية العربية تمثل البديل المنشود، وتجسّد عملية البحث عن سبيل إنساني حضاري وثقافي غير موجود في الشرق»[38]، وفشل المرأة في تجسير العلاقة التراتبية بين العالمين« ليس فشلا ذاتيا بقدر ما هو فشل تاريخي بين المثقف العربي والثقافة الغربية»[39]، فالتفاعل بين الذكورة والأنوثة في روايات "صنع الله إبراهيم" تفاعل بين أنموذج شرقي متخلف وحضارة غربية، والعلاقة بينهما علاقة انفصالية يجسّدها صراع البطل مع الأنثى.

3-الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا

قامت نصوص "صنع الله إبراهيم" على ما يقدّمه الواقع من المفارقات القائمة بين الشرق والغرب وبين مبدأ "كيبلنغ *Kipling* " الذي يرى أنهما عالمان متمايزان لن يلتقيا أبدا، انطلاقا من أنّ الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا[40]. وبهذا نكون إزاء رؤية مغايرة لنهاية الأحداث التي تبدأ بلقاء يفرضه اللقاء العلمي في "أمريكانلي" و"القانون الفرنسي"، والاستعماري في "العمامة والقبعة"، وهو لقاء متوهم يفسره الانفصال الذي يلي كل لقاء.

استطاع "صنع الله" أن يرسم مسار الرحلة الحضارية بين العوالم المتباينة وفق تحديدات جوهرية تقدمها الشخصيات الأنثوية الغربية، فقد أفرز مشهد خروج الفرنسيين من "مصر" عن موقف "بولين" المناهض للحضارة المادية التي تعتنقها، حيث كان قرار عودتها إلى "فرنسا" مؤسسا على نظرة مادية بحتة تخضع إلى ملابسات الدلالة من حيث سعيها إلى العيش الرغد الذي وجدته لدى "نابليون":

« وجدتها منفعلة وقالت إن كليبر وافق على رحيلها إلى فرنسا ووقع هذا النبأ كالصاعقة.

قلت: لم تذكري لي شيئا من ذلك. أنت التي طلبت العودة؟

قالت: طبعا، هل تظن أني أترك نابليون يستمتع بما وصل إليه من مجد وحده

قلت بلهجة ضارعة: وماذا عنا؟

(...) وقالت: ستنساني بسرعة.

قلت: لن يحدث»[41].

يمثل تجاهل "بولين" لـــ"شكري" /الشرق إسهابا في بناء الفلسفة الفردية للغرب، بما ينضوي عليه ركضها خلف المادة، كان حضورها في الرواية مؤسسا منذ البداية على أسس مادية، فقد أرادت أن تُعوّض ما عانته في

"فرنسا" فرافقت زوجها إلى الشرق في مغامرة للاستفادة من المستعمرات الجديدة، ولكن سرعان ما أبدلت "نابليون" بالجندي البسيط متجاهلة كل الروابط الروحية التي جمعتها بزوجها طيلة الرحلة الشاقة إلى الشرق، وراحت تعمل لبناء صرح مجدها الخاص بعد حصولها على بعض الامتيازات، ويشير الكاتب في نهاية الرواية إلى مسيرة "بولين": « وقد تحدثت أغلب المراجع عن بولين لسلي فوريه، التي عشقها نابليون في مصر، وذكرت أنه رفض مقابلتها عقب عودتها إلى فرنسا لكنه أهداها قصرا في باريس ومنحا مالية متكررة وفي نفس السنة تزوجت ضابطا في الجيش التركي يدعى دورانشو فحصلت له على بعض وظائف قنصلية متواضعة ثم احترفت الكتابة، (...) وفي عودة الملكية انفصلت عن زوجها وباعت أثاثها ثم رحلت إلى البرازيل مع ضابط سابق في الحرس الامبراطوري بهدف التجارة إذ أخذت معها بضائع فرنسية باعتها في البرازيل واشترت بحصيلتها أخشابا ثمينة عادت بها إلى فرنسا وأخذت تروح وتغدو بين البلدين وهي تشتغل بهذه التجارة الرابحة »[42].

أرادت "بولين" أن تمجّد قيم الرأسمالية الغربية بولوجها باب التجارة في الغرب (السوق، البيع والشراء، التبادل، المال)، إذ لم تكن العلاقات والقيم الاجتماعية التي أقامتها "بولين" مع الضباط وغيرهم إلا خطوات منهجية لتحقيق مصالحها الشخصية، وهنا تكمن الحقيقة، حتمية الصدام مع الشرق الذي لا يؤمن بهذه الحياة، وما تفسره حالة الانفصال التي عبّرت عن فشل العلاقة الروحية التي تبناها الراوي، فـــ« الحضارة ليست إلا صورة للإنسان»[43]، يتجسد ذلك من خلال المشهد الحواري:

« ...كان الشراب حلوا بعث الدفء في أوصالي وجعلني مرحا وحيّا ثم حزينا، لاحظتْ تغيري فقالت: أنت حزين لذهابي؟

قلت طبعا

قالت : ربما أعود وربما تأتي أنت إلى فرنسا

–وكيف أجدك؟

–لا أعرف أين سأكون سأكتب لك عندما أستقر

أوشكت أن أتوسل إليها أن تأخذني معها ولكني لم أفعل، وكنت غاضبا فاستأذنت في الذهاب »[44].

تتراءى للقارئ إمكانية تحديث الرؤية المضادة الناجمة عن التطور الطارئ على أحداث الرواية، بإعادة هيكلة النص من جديد وفق منظور أنثوي حضاري للعالم، يتحدد بلحظة انعتاق الراوي من ربقة المجهول في الحياة، « وموقف الإنسان فيها يتراوح بين ثلاثة محاور هي أن يرى الحياة كما صورت له من أبويه وأساتذته أو من قراءاته. أو أن يرى الحياة كما عاشها حسيا وما اختزنته في ذهنه من ماضي الأحداث التي أبقى منها صورا منتقاة ومزينة بما تميل إليه روحه، أو أن يراها كما اكتشفها ولحظة اكتشاف الحياة هي لحظة الانعتاق. ولكنه انعتاق له طابع الشذوذ في منظار الآخرين، وليس بمقدور الإنسان البقاء آمنا في دائرة هذا الانعتاق إلا في لحظات مسروقة من الزمن»[45].

حدث فعل انعتاق "تلميذ الحبرتي" من هوسه الحضاري وحواره المتوهم مع الآخر زمن انفصال "بولين" وقرارها العودة إلى غربها، «...اليوم مغادرتها، مشاعري متناقضة فأنا حزين لفراقها وفي الوقت نفسه أشعر بشيء من الارتياح»[46]. بدأ هذا الانعتاق لحظة إدراك الراوي لمكنونات الأمور، حيث كان الغرب (بولين) غازيا مستعمرا كائنا غريبا عن البيئة الشرقية جغرافيا وثقافيا ودينيا، كما يمثّل خروج الفرنسيين من "مصر" انعتاقا تاليا للمصري

من ربقة الحضارة الغربية الوهمية التي جاء بها الاستعمار، فالانعتاق هاجس عبّر عنه "تلميذ الجبرتي" بالارتياح.

فالغرب غرب وإن كسر الحدود الجغرافية، ولم تنته رحلة "صنع الله" الحضارية عند انعتاق المصري من ربقة الحضارة (العسكرية) التي جاء بها الغرب المستعمر، فقد قاده تطلّعه الدائم إلى المستقبل إلى لحظة انعتاق ثانية مع "شكري" الذي عرفت مسيرته الحضارية مع "شرلي وسيلين" مشاق التناقض والقلق والاضطراب الناجم عن الاختلاف، فقد نقل "شكري" مشهد خطواته الأخيرة إلى باب الجامعة بالتفصيل، واضعا القارئ أمام الانعتاق الكلي من جحيم السيطرة الغربية وتمركزه، متحررا من القيود التي وضعها الغرب باسم الحرية:

« مضيت في الطرقة المظلمة وأنا أتلفت خلفي. توقفت عند ركن البريد ووضعت المظروف الذي احتوي على كشف الدرجات في صندوق "شادويك" ثم اتجهت إلى الدرج. ألقيت نظرة أخيرة على الطرقة وخيل إلي أني لمحت شخصا في نهايتها. وتناهى إلى سمعي الأزيز الذي سمعته من قبل أو خُيِّل لي.

لم أتلكأ وهبطت الدرج مسرعا. وكدت أتعثر وأنا أستخرج سلسلة المفاتيح من جيبي. بحثت عن مفتاح الباب الخارجي وأعددته في يدي. فلم أكن واثقا من أني سأجده مفتوحا كما تركته»[47].

أشار "شكري" إلى عودته إلى وطنه الأصلي وانفصاله بشكل نهائي عن الغرب بشكل تراتبي يبدأ من لقائه الوهمي مع "شرلي"، وينتهي بقرار وضع فاصلة بين العالمين والعودة إلى مصر، كما جعل الكاتب قصة الحضارة في "القانون الفرنسي" تؤول إلى النهاية نفسها، طبقا لما يطبعه موقف الآخر (سيلين) من الأنا بقولها:

« ...قالت لا طبعا. أنت شخص ساذج.

بدأت أغضب

تستفزني عن عمد؟ مازوخية؟ لكني لم أصفع امرأة في حياتي ولا حتى رجلا»[48]. وعليه تتحدد البنية الحضارية للنص، وهي بنية الرفض الناجمة عن تعالي الأنموذج الغربي، كما يكشف النص عن الصورة الحقيقية للعلاقة الحضارية بين العالمين التي يمثّلها موقف "سيلين" بقولها: « ...ردّي أنك بالضبط إنسان ساذج ومتخلف»[49]، وعليه يتمّ تعيين المفارقات الدلالية للشرق المنعتق من حلمه في مدّ جسر التواصل، والذي مارس دوره الحضاري في هذه القصة بجدارة، وأسفر عن رؤية لا تمّحي ملامحها على مرّ الزمن: « لن أتصل بها ولن أصعد إلى غرفتها ولن أمدد إقامتي. هل ستتلفن وتعتذر أو تأتي وتطرق الباب وتبكي؟

اتصلت بالفندق طالبا إيقاظي في الخامسة صباحا. أشعلت سيجارة جديدة ومضت ساعة دون أن يدق التليفون»[50].

انحصر مفهوم الحضارة من منظور الأنثى في دائرة الوهم التي تخبّط فيها الراوي/تلميذ "الجبرتي" و"شكري" فترة زمنية كانت كافية لتحديد مواقع كل من الأنا والآخر في سلسلة الحضارة، بأن لا موقع « للآخر في خارطة التفكير الغربي، فغاية الكمال كما يرى هوسرل أن يكون الآخر غربيا، فحيث الغرب، ثمة منطق يقود الحياة إلى مصير خالد، وبهذا تترتب شؤون الآخر، بمنظور غربي، لا يريد أن يرى في موضوعه إلا ما يقصد أن يراه هو فعلا، ويرغب فيه»[51].

أراد "صنع الله" أن يكشف عن مواضعات الحقيقة التي تتبني على الصراع، أو كما عبر عنه "هنتجتون" بالكره الذي يمثل « كلية وجود الصراع. الكره شيء إنساني. ولتعريف النفس ودفعها يحتاج الناس إلى أعداء: منافسين في

العمل، خصوما في الإنجاز، وفي السياسة، ومن الطبيعي ألا يثق الناس في المختلفين عنهم ومن لديهم القدرة على إلحاق الضرر بهم، بل يرونهم خطرا عليهم. حل صراع ما أو اختفاء عدو ما، يولد قوى شخصية واجتماعية وسياسية تؤدي إلى نشوء صراعات جديدة أو أعداء جدد. نزعة الـــ"نحن" والـــ"هم"»[52] .

يمثل الكره معادلا موضوعيا لنظرية الرفض التي التزم بها الغرب، وفي ذلك إقرار ببنية الاختلاف التي يروّجها للتفريق بين الشعوب والأمم، وتحقيق الهيمنة والانفراد بالتمركز حول ذاته، وفي هذا تأكيد على مقولة "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا.

- خاتمة

احتكمت العلاقة بين الشرق والغرب إلى ما قدّمته العلاقة بين الرجولة والأنوثة، فقد كانت المرأة الغربية معادلا موضوعيا للحضارة، باعتبار ما تحمله من دلالات تاريخية وثقافية أسهمت في وضع إحداثيات المواجهة الحضارية، جرى فيها وسم الحضارة الغربية بأنها مفهوم مرادف للموت طبقا لما قدّمته النصوص من تمثلات أيديولوجية لمرض الشخصيات الغربية الأنثوية روحيا وماديا، اكتست الحضارة الغربية من هذا المنطلق طابعا ماديا تمّ بموجبه القضاء على فعالية القيم الإنسانية، فصار الإنسان سلعة تستهلك في سوق الرأسمالية، وذلك مقابل الحضارة الشرقية (أو الذكورة) التي جرى وصفها بأنها حضارة متخلفة، ولكن مرضها كان حافزا لإعادة النظر في ماهية الموجودات، حيث كانت محاولة انعتاق الراوي من علاقته بالأنثى انعتاقا من ربقة التمركز الغربي، وهذا ما حذا بالراوي إلى الرجوع إلى موطنه الأصلي، كشفت شخصيات "صنع الله إبراهيم" عن قلق حضاري

وتمزّق ثقافي، وعن زيف التفاعلات الحضارية تأكيدا على بنية الاختلاف التي تفصل بين المثقف العربي الشرقي والثقافة الغربية، وهو بعد مشروط بالانفصال بين الشرق والغرب.

- الهوامش

* المصطلح مستعار من كتاب: جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، لبنان، د.ط، د.ت.

[1] – عبد الله الغذامي، الموقف من الحداثة، ومسائل أخرى، ط2، 1991، ص08.

[2] –صنع الله إبراهيم، أمريكانلي، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، ط 1، 2003، ص 439.

[3] – يرى "فانون" أن الاستعمار رمز للانفصام في الشخصية بين الإنسان وتملك الإنسان، من خلال رصده لبعض الحالات الغربية التي كانت تعاني نوبات من جراء التعذيب الذي كانوا يمارسونه في المستوطنات الشرقية، ومن ذلك ما تعرض إليه المفتش الفرنسي الذي طلب من الطبيب أن يساعده على أن يعذب المواطنين دون أن يصاب بالاضطراب، اُنظر: فرانتز فانون، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، سلسلة السياية والمجتمع، دار الطليعة ، بيروت، د.ط، د.ت، ص 159.

[4] – سلامة موسى، ما هي النهضة، ومختارات أخرى، موفم للنشر، د.ط، د.ت، ص 130.

[5] – الولايات المتحدة الأمريكية طليعة الانحطاط، كيف نحضر للقرن الحادي والعشرين، ترجمة: مروان حموي، دار الكتاب، سوريا، ط1، 1998، ص 26.

[6] – صنع الله إبراهيم، العمامة والقبعة، دار المستقبل العربي، مصر، ط 1، 2008، ص 211.

[7] – اُنظر: صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي الجديد، تر: طلعت الشايب، ط 2، 1990، المقدمة، ص 10.

[8] – صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، دار المستقبل العربي، مصر، ط 1، 2008، ص 217.

[9] – مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (الجزائر، سورية)، ط 5، 1986، ص 132.

[10]– القانون الفرنسي، ص 218.

[11] – صدام الحضارات، ص 252.

[12] – القانون الفرنسي، ص 218.

[13] – أمريكانلي، ص 399.

[14] – ندرة اليازجي، رسائل في حضارة البؤس، مطابع ألف باء، سوريا، د.ط، 1923، ص 83.

[15] – أمريكانلي، ص 409.

[16] – مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، ط 1، 1969، ص 15.

[17] – أُنظر: غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، دار الشروق، (مصر، لبنان)، ط 1، 1991، ص 21 وما يليها.

[18] – جمال مباركي، الغرب في الرواية العربية الحديثة، رسالة دكتوراه، إشراف الأستاذ: الطيب بودربالة، جامعة: العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2008، 2009، ص 203.

[19] – جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، ص 27.

[20] – القانون الفرنسي، ص 180.

[21] –أُنظر: جيكوموللر–فاهرنهولتر، الصراع على الله في أمريكا، مسيحي أوروبي يعاين الدين المدني، تر: معين الإمام، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2010، ص25.

[22] – أمريكانلي، ص 134.

[23] – جان ديلومر، الغرب والخوف من المرأة، مجلة دراسات عربية، العدد 2، السنة 18، ديسمبر 1981، ص 130.

[24] – القانون الفرنسي، ص 38

[25] – أُنظر: جان ديلومر، الغرب والخوف من المرأة، ص 130.

[26] – أمريكانلي، ص 260.

[27] – المصدر نفسه، ص 465.

[28]– صنع الله إبراهيم، العمامة والقبعة، ص 91.

[29] – المصدر نفسه، ص 220.

[30] – المصدر نفسه، ص 102.

[31] – أُنظر: جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، ص 28.

[32] – المصدر السابق، ص 105.

[33] – القانون الفرنسي، ص 222، 223.

[34] – فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مصر، ط1، 1993، ص 287.

[35] - (l'homme est un loup pour l'homme)Moustapha Safouan, Europe/Moyen-Orien in Conflit ou Dialogue Des Civilisation, une alternative mal posée ? Dialogue des deux rives, Acte du collogue, Fondation du Roie Abdul-Aziz, Casab lanca, 2009, Konrad Adenouer, p 78.

[36] – القانون الفرنسي، ص 225..

[37] – المصدر نفسه، ص 226.

[38] – جمال مباركي، الغرب في الرواية العربية الحديثة، ص 203.

[39] – المرجع نفسه، ص 203.

[40] –أُنظر:

Moustapha Safouan, Europe/Moyen-Orient in Conflit ou Dialogue Des p 77.
Civilisation,

[41] – العمامة والقبعة، ص 219.

[42] – المصدر نفسه، ص 330، 331.

[43] – عبد الله الغذامي، الموقف من الحداثة، ص 18.

[44] – العمامة والقبعة، ص 246.

[45] – المرجع نفسه، ص 46.

[46] – العمامة والقبعة، ص 222.

[47] – أمريكانلي، ص 482، 483.

[48] – القانون الفرنسي، ص 226.

[49] – المصدر نفسه، ص 228.

[50] – المصدر نفسه، ص 226، 227.

[51] – عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010، ص 183.

[52] – صامويل هنتجتون، صدام الحضارات، ص 211.